



Ibtihal Abdulkareem
Faisal Al-Sadoon¹

Raeed Hazim Hasan^{2, *}

¹ College of Education for Women
Tikrit University
Salahudeen
Iraq

² College of Arts
Tikrit University

Keywords:

In
fi
C
M
F

ARTICLE INFO

Article history:

Received 29 May 2018
Accepted 00 xxx 2018
Available online 05 xxx 2018

IMPACT OF THE SECOND ABBASID ERA TURMOIL ON ABI HAIAN AL-TAWHAIDI

A B S T R A C T

During the second Al-Abbasi period, the scientific movement witnessed a flourishing and flourishing witnessed not before or after this period, so that many of the writers considered this stage one of the most fertile Arab-Islamic cultural stages. Political fragmentation has had a great impact on that prosperity. Although many regions have left and independent Baghdad, these provinces have been the cause of this prosperity. They have not only been competing with each other in politics but have also been most competitive. Despite the cultural prosperity, the impact of political, social and economic turmoil on many of the clients and writers of the era has been reflected. Among the most famous of these is Abu Hayyan al-Tawhidi, who joined his literature with a touch of sadness, which often resulted in barbarous him to pessimism and then to rebel against this miserable situation, which suffered is a group of writers of his time, and we will address this in our article – Insha'a Allah - to explain it all.

DOI: <http://dx.doi.org/10.25130/jtuh.25.10.2018.05>

أثر اضطراب العصر العباسي الثاني على أبي حيان التوحيدي

ابتهاال عبد الكريم فيصل – كلية التربية للبنات، جامعة تكريت، صلاح الدين، العراق

رائد حازم حسن – كلية الآداب، جامعة تكريت، صلاح الدين، العراق

الخلاصة

شهدت الحركة العلمية خلال العصر العباسي الثاني ازدهارًا وانتعاشًا لم يشهد له مثيل لا من قبل ولا من بعد هذه الفترة، حتى أن الكثير من الأدباء اعتبر هذه المرحلة من أخصب المراحل الثقافية العربية الإسلامية. وقد كان للانقسام (1) السياسي الأثر العظيم في ذلك الازدهار، فعلى الرغم من خروج الكثير من الأقاليم عن بغداد واستقلالها عنها إلا أن هذه الأقاليم كانت نفسها سببًا في هذا الازدهار، إذ إنهما لم تكن متنافسة فيما بينها في شؤون السياسة فحسب، بل كانت أيضًا متنافسة أشد ما يكون التنافس في جلب الأدباء والعلماء والإغداق في العطاء والبذل لهم لتشجيعهم على البحث والتأليف (2)، إلا أنه وعلى الرغم من هذا الازدهار الثقافي فقد انعكس أثر الاضطرابات السياسية والاجتماعية والاقتصادية على الكثير من عملاء وأدباء العصر، ومن أشهر هؤلاء أبو حيان التوحيدي الذي التحق أدبه بمسحة من الحزن والانقباض اللذين كثيراً ما أفضيا به إلى التشاؤم ومن ثم إلى التمرد على هذا الوضع المزري الذي عانى منه هو ومجموعة من الأدباء في عصره، وسوف نتطرق في مقالنا هذا – إن شاء الله – إلى توضيح ذلك كله.

* Corresponding author: E-mail : adxxxx@tu.edu.iq

الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية في العصر العباسي الثاني وأثر ذلك على أهل العلم والأدب:

لقد عرف المجتمع العباسي في القرن الثالث والرابع الهجريين بالكثير من مظاهر الفوضى والتقهقر ، فُقِدَ الأمن وكثر القتل وأصبحت المناصب الحساسة في الدولة نُهباً بين الأقوياء. يقول ابن الأثير في وصفه للحالة المزرية التي آلت إليها السلطة خلال حوادث (334 هـ) إنه "في خلافة المطيع شغب الجند عن معز الدولة، وأزعجوه فضمن لهم أرزاقهم، واضطر إلى خبط الناس، وأخذ الأموال من غير وجوهها، وأقطع قواده وأصحابه القرى جميعاً... وكانت البلاد قد خربت من الاختلاف والغلاء والنهب" (3)، كثيرة هي المشاكل السياسية والمذهبية في العصر العباسي الثاني. لقد كانت أمور الخلافة قد تطرق إليها الاضطراب منذ مستهل النصف الثاني من القرن الثالث الهجري بسبب استبداد الأتراك بالأمور دون الخلفاء، كما ازداد عدد الخارجين عليها من حمل لواء الثورة على السلطة، والتمرد على الحكم يضاف إلى ذلك ما أصاب الإدارة من فساد واضطراب.

فبعد أن كانت الدولة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين سيادة دينية أولاً ثم دنيوية ثانياً، ثم غدت في عصر السيادة العربية (العصر الأموي وصدر العصر العباسي) ملكاً واسعاً عظيماً فلما انتهت هذه الفترة بدأت السيادة العربية تضعف رويداً رويداً وتحول الحكم من سلطة ملكية إلى زعامة دينية مستضعفة إذ تغلب العجم الفارسيون ثم الأتراك على الدولة العباسية، فتقلصت هيبتها وضاع صيتها خاصة حين تسلم الأتراك المناصب العليا في الجندية ثم الإدارة فأصبح الأمر كله بيدهم يولون الخلفاء تارة ويخلعونهم أخرى، فأذاقوهم ألوان الهون والتعذيب الذي ينتهي في الغالب بالقتل ، وقد جاء في الفخر قول صاحبه واصفاً دولة بني بويه الذين حكموا طيلة القرن الرابع الهجري فبسطوا يدهم على السلطة والشعب فيقول : "دوّخت الأمم، وأذلت العالم، واستولت على الخلافة، فعزلت الخلفاء وولّتهم واستوزرت الوزراء وصرفتهم، وانقادت لأحكامها أمور بلاد العجم والعراق وأطاعتهم رجال الدولة بالاتفاق" (4).

ضعفت الخلافة المركزية في بغداد بدخول القرن الرابع الهجري، ولم يبق للخليفة أي نفوذ فعلي في المملكة، فكانت بلاد فارس في يد بني بويه والموصل والشامل في يد مُحمَّد بن طغج ثم في أيدي الفاطميين، وخراسان والبلاد الشرقية في أيدي السامانية إلى جانب إمارات أخرى، وبذلك أصبح في العالم الإسلامي ثلاث خلافات هي : الخلافة العباسية في بغداد، والخلافة الفاطمية في إفريقيا، والخلافة الأموية في قرطبة، فأصبحت مملكة بني العباس نُهب أيدي الأتراك والديلم وكلهم اجتهد لنزع تراث العباسيين من أيديهم (5).

ويبدو أن الخط الذي كان يهدد الدولة العباسية لم يكن من الداخل فحسب، بل وحتى من

الخارج حيث تفاقم خطر الروم في القرن الرابع الهجري ، وأخذوا يهددون شمالي العراق وبلاد الشام وكانوا يريدون الوصول حتى إلى بغداد وسواحلها(6) فانعكس ذلك على الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، فمن الناحية الاجتماعية ظهر بون شاسع بين الطبقات الشعبية وابتعاد عن العدل في توزيع الثروة العامة وظهرت الطبقية بشكل صارخ، فأصبح المجتمع يتكون من "الطبقة العليا التي تشمل الخلفاء والوزراء والقوات والولاة وما يلحق بهم من الأمراء وكبار رجال الدولة ورؤوس التجار وأصحاب الإقطاع من الأعيان وذوي اليسار وهذه الطبقات كانت غارقة في النعيم تحي لها الأموال من كل مكان، وطبقة وسطى وتشمل رجال الجيش وموظفي الدواوين والتجار والصناع، وطبقة دنيا وتشكل العامة من الزراع وأصحاب الحرف الصغيرة والخدم والرفيق"(7) ، ومن هنا وجد في المجتمع الأغنياء الذين يملكون الأموال الفاحشة والفقراء الذين يرزحون تحت وطأة الفقر وشظف العيش ، لقد كانت الحالة الاجتماعية للطبقة العامة في حالة مزرية للغاية بسبب سوء توزيع الثروة العامة وذيوع الاستغلال والترف والبدخ في الطبقات العليا على حساب الطبقات الدنيا.

وتُعد كتب التوحيد صيرة صادقة عن الحالة البائسة التي آل إليها المجتمع في العصر العباسي الثاني ولم يسلم المفكرون وأهل الأدب والمعرفة من تلك الحالة، فهذا أبو سليمان السجستاني المنطقي المشهور : "بحاجة ماسة إلى رغيغ وحوله وقوته، قد عزا عن أجرة مسكنه، ووجبة غدائه وعشائه" (8)، وكان المعاني بن زكريا النهرواني ذا أنسة بسائر العلوم شاهده التوحيد : "في جامع الرصافة وقد نام مستديراً في يوم شات ، وبه من أثر الفقر والبؤس أمر عظيم مع غزارة علمه واتساع أدبه، وفضله المشهور" (9)، وهذا أبو بكر القومسي "وكان بحرًا عجائبا، وسراجا وهاجا"(10) قد بلغ من الضر والفاقة ومعاناة الشدة منزلة عظيمة، وهكذا كان الفقر والعوز من أهم ما ميز حياة أكثر الناس في العصر العباسي الثاني بما في ذلك أهل العلم والأدب.

أثر الاضطراب الشامل في العصر العباسي الثاني على واحد من أدباء العصر (أبو حيان التوحيد):

لقد عاش التوحيد(11) مدة طويلة وهو يعاني آلام البؤس والحرمان كيف لا وهو يحترف - على كره منه - مهنة الوراقا وهي مهنة شاقة متعبة قائلاً : "لقد استولى عليّ الحرف"(12)، وتمكن مني نكد الزمان إلى الحد الذي لا استرزق مع صحة نقلي، وتقييد خطي، وتزويق نسخي، وسلامته من التصحيف، والتحريف، بمثل ما يسترزق البليد الذي ينسخ النسخ ويمسخ الأصل والفرع"(13). وهكذا كره أبو حيان هذه المهنة التي كانت سبب فقره، وسخط عليها وتذمر منها لأن فيها ذهاب العمر والبصر (14) فمردها ضئيل، وصاحبها في فقر دائم ، فاشتد بغضه لها حتى غدت في عينه إحدى المنغصات التي أفسدت مزاجه وعكرت عليه صفو حياته (15) والملاحظ أن التوحيد لم يكن

منفردًا في حالته تلك، فالكثير من علماء القرن الرابع قد امتهن أحقر المهن (16) ورضخ تحت وطأة الفقر، وعانى البؤس والحرمان، وقد أورد التوحيدي أمثلة عديدة عن حالة البؤس التي انحدر إليها زملاؤه من المفكرين والأدباء (17) لذلك نجد التوحيدي يقف ساخطًا متمردًا على العلم الذي لا يصون صاحبه : إذ العلم في نظره وسيلة لطلب الدنيا" (18)، ويقف مدافعًا عن تلك الفئة من العلماء والأدباء التي تحاول جاهدة أن تصون ماء وجهها بعدم الترامي على الأعتاب التي تترفع على المزاحمة أمام الأبواب وهي فئة موجودة وإن كانت قليلة، يطالب التوحيدي بضرورة تقرييها وإكرامها لأن أصحابها هم رجال "أرأوا أن سف التراب أخف من الوقوف على أبواب إذا دنوا منها دفعوا عنها" (19).

لقد عاش التوحيدي حياة أقل ما يقال فيها أنها مخاض طويل وصعب اضطره في الكثير من الأحيان إلى أن يبيع فيها الدمة والمروءة، وإلى أن يمارس النفاق والكذب عله يحظى بما ينجيه من وطأة الفقر ، وقد سجل هو ذلك على نفسه في نص نادر من أدب الاعترافات وذلك في الرسالة التي بعث بها إلى القاضي أبي سهل علي بن محمد ، وهي آخر ما وصلنا من ذلك المثقف الموسوعي الكبير حيث اختفت أخباره تمامًا بعدها، فجاء في الرسالة ما يلي : "لقد اضطررت بينهم بعد الشهرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة، وإلى بيع الدين والمروءة وإلى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم ويطرح في قلب صاحبه الألم" (20).

لقد أراد التوحيدي من العلم والأدب أن يكون وسيلة لتحقيق ما يصبو إليه من غنى وجاه ، ولكن الحظ لم يسعفه فكان الفقر حليفه، فأصبح العدو اللدود المصاحب له ، فوصفه بأقذع الأوصاف، فهو الذي يخرج المرء عن دينه، ويسلبه مروءته وعزة نفسه يقول فيه : "الفقر ليس لصاحبه عياد من التقوى ، ولا عماد من الصبر ولا دعامة من الأنفة واصطبار على المرارة، وهو جالب الطمع ، وكاسب الجشع والضرع وهو الحائل بين المرء ودينه بل هو سد دون مروءته وأدبه وعزة نفسه" (21).

وهكذا فالفقر في نظر أبي حيان عدو يسلب الإنسان مروءته، فنجدته يشهر سلاح التذمر والشكوى وفي ذلك موقف عبر به عن رفضه لهذا الواقع الذي فرض عليه فيثور وإن لم يكن ذلك بالسيف فإنه بسلاح لا يقل حدة.

وكثيرًا ما تنفقع مرارة الرجل بسبب فقره، ويشتط به الأمر، فيضطره إلى تعريض أعز ما يملك كرامته وأدبه للمهانة، والمدح الرخيص فيقول : "أنا سامع مطيع وخادم شكور، ومثلي يهفو ويجمع، وأنت مولى وأنا عبد، وأنت أمر وأنا مؤتمر، وأنت مصطنع وأنا صنيعة، وأنت منشئ وأنا منشأ ، وأنت أول وأنا آخر" (22) ويتابع أبو حيان في الحديث نفسه ، وما يختلجها من أسى ولوعة، وما يلقاه من صد وإهمال ونكران فيقول : "أيها الكريم ارحم، والله ما يكفيني ما يصل إليّ في كل شهر من هذا الرزق المقتر الذي يرجع بعد التقدير والتيسير إلى أربعين درهمًا مع هذه المثونة الغليظة والسفر الشاق والأبواب المحجبة

والوجوه المقطبة والأيدي المسمرة، والنفوس الضيقة والأخلاق الدنيئة، أيها السيد أقصر تأميلي، ارفع ذمام الملح بيني وبينك وتذكر العهد في صحبتي ، طالب نفسك بما يقطع حجتي، دعني من التعليل الذي لا مرد له والتسويق الذي لا آخر معه" (23).

وهكذا فقد حاول أبو حيان بكل السبل التمرد على وضعه وفقره، الذي آلمه فحاول بكل جهد أن يدفعه وإن كان ذلك عن طريق التوجع والاستجداء، وهو من خلال ذلك كله إنما يعكس لنا مشكلة الطبقة في القرن الرابع الهجري بل وفي كل زمان ومكان فهي مشكلة فقراء وأغنياء، ميسورين ومحرومين(24) .

لقد تمرد أبو حيان على واقعه وثار في وجه القدر، وصرخ معبراً عن مرارة غضبه على الأيام، فأعلن الشكوى من زمانه، وبكى في إبداعاته على معاناته وحرمانه كيف لا وهو "على كثرة ما صحب من ذوي السلطان وأصحاب النفوذ في الدولة بائساً فقيراً، رقيق الحال دائم التفكير في أهل الدنيا وما يمرح فيه الجاهلون والمنقصون ومقارنة ذلك كله بما هو عليه من البؤس والشقاء وشظف العيش، وتكفف الكريم واستجداء البخيل واللئيم على سعة فضله، وإحاطته بما يلهج به الناس من المعارف إلى وقته ... " (25) وشدة فزع الرجل من الفقر إنما نلمحه في كتاباته ، فها هو يكتب إلى أبي الوفاء مستجدياً طالباً منه أن ينتزعه مما هو فيه من هول الفقر : "خلصني أيها الرجل من التكفف ، أنقذني من لبس الفقر أطلقني من قيد الضر، اشترني بالإحسان اعتبدي بالشكر، استعمل لساني بفنون المدح، اكفني منونة الغداء والعشاء ... " (26).

كثيرة هي النصوص التي عكس فيها الرجل تمرده وسخطه على الفقر ، فنلاحظ جلياً من خلال ما سبق وفي معظم ما خط التوحيدي يراعه تدمير هذا الأديب المنسحق تحت وطأة الفقر والعوز، لم يعرف الرجل استقراراً ولا أماناً كل ذلك على أمل التخلص من هذا الصاحب الثقيل الذي أبي إلا أن يصاحبه طيلة عمره ، فتنقل بين بغداد والري ونيسابور وواسط وشيراز (27) كل ذلك بغية الخلاص منه ، إلا أن القدر أراد غير ذلك ، لقد غدا الفقر في نظر التوحيدي وهو الرجل المرهف المشاعر ، رقيق الإحساس سريع التأثر والانفعال ، فكرة رهيبة، تنطوي على معاني الحرمان والجهد الأليم لذا يظهر لنا الفقر في كل نفثة من نفثاته يقول : "رأيت شبابي هرمًا بالفقر ، وفقرني غنيًا بالقناعة" (28) وقد بلغت به شدة حاله وعوزه أنه كان لا يظفر حتى بقوته الضروري وعجز في الحصول حتى على "طمرين للتستر لا للزينة والاختيال" (29)، فكان يأكل الكسيرة اليابسة والبقيلة الداوية، ويلبس القميص المرقع ويتأدم بالخبز والزيتون (30).

وما التوحيدي في الواقع إلا صورة لمتقفي القرن الرابع الهجري فكانت آثاره صدى لحالة البؤس التي انحدر إليها الناس في زمانه ومن بينهم المفكرون وأهل الأدب والمعرفة لكن تفرد يظهر لنا في شدة شعوره بهذا الفقر وفي كثرة تبرمه به ومحاولته التخلص منه وكثرة شكواه خاضعاً في ذلك كله لشعوره بأنه يستحق

أكثر مما منحتة الأيام (31) ، لقد وقف أبو حيان من الفقر في زمانه موقف الناقد والرافض والمستنكر، ولعل ذلك هو ما حمله إلى أن يقول على لسان بن السماك (أبو العباس مُجَّد بن صبح الكوفي ، ت: 183هـ / 799م) (32).

"لولا ثلاث لم يقع حيف لم يسل سيف :

لقمة أسوغ من لقمة

ووجه أصبح من وجه

وسلك أنعم من سلك" (33).

ف نجد هاهنا يقف موقف المصلح في مجتمعه، معللاً سبب مختلف الاضطرابات والصراعات الاجتماعية التي يتخبط فيها ابناء عصره، فيؤكد أن ذلك يرجع إلى التفاوت الاقتصادي، وبذلك يؤكد التوحيدي على أن البون الشاسع الموجود بين طبقات مجتمعه هو سبب الصراع والتطاحن فيما بينها، وكأني به يدعو ضمناً إلى ضرورة المساواة الاقتصادية حتى يتوفر الاستقرار الاجتماعي، وحتى يستتب الأمن فلا يسلم الناس السيوف على بعضهم البعض(34).

مواقف كثيرة مبثوثة في آثاره يعكس لنا التوحيد من خلال تصويره لمعاناة وفقر الآخرين (35) معاناته هو وفقره فنلمس بذلك فظاعة الماراة التي عانى منها الرجل، وذلك أمر طبيعي على كل من كان في مثل علمه وأدبه ومع ذلك يجد نفسه عاجزاً حتى على أن يجد عملاً، أو رأس مال يستعمله في تجارة او حرفة تؤمن له رزقه، فيصون بذلك ما وجهه من ذل السؤال لكن هيهات، فيضطر إلى أن يطلب من أبي الوفاء المهندس أن يستعمل جاهه عند الوزير ابن سعدان وذلك كي يجد له عملاً، أو يمدد برأس مال يعتق نفسه من الفقر والحاجة فيقول :

"سرحني رسول إلى صاحب البطائح (36) أو إلى أبي السؤل الكردي (37) أو إلى غيره ممن هو في الجبال هذا إلى أن تؤهلني برسالة إلى سعد المعالي (38) بأطراف الشام وإلى البصرة ، فإني أبلغ في تحمل ما أحمل ، وأداء ما أؤدي ، وتزيين ما أزين حدًا أملك به الحمد وأعرف فيه بالنصيحة وأستوفي فيه الغاية دع هذا، ودع لي ألف درهم ، فإني لأتخذ رأس مال وأشارك بقال المحلة في درب الحاجة" (39) . يتجلى لنا من خلال ما سبق أن التوحيدي كان يدرك قدراته وإمكانياته في القيام بأعظم الأعمال وأجلها، ولكنه بطل لا يقدر على تأمين عيشه، وهذا ما يزيد في مرارته وحزنه وبالتالي تمرده ورفضه لهذا الواقع الذي لا يعطي لأصحاب الحق حقوقهم فيتركهم يعانون الفقر والحرمان بينما ينعم غيرهم في مجبوحة من العيش.

لقد عانى التوحيدي الكثير من الفقر الأمر الذي أداه هو ومن كان في مثل حاله إلى الوقوع تحت وطأة التطيّر والتشاؤم، فأصبح يرى أن حظه من الحياة العصر وأن الشؤم له قرين وها هو ذا يورد لنا قصة

أبي بكر القومسي وقصيصة العطوي لا لشيء إلا ليصف من خلالهما حاله(40). إذ يقول : " وأنشدنا أبو بكر القومسي الفيلسوف ... وكان من الضر والفاقة بمنزلة عظيمة، عظيم القدر عند ذوي الأخطار، منحوس الحظ منهم، متهمًا في دينه عند العوام مقصود من جهتهم، فقال لي يومًا: ما ظننت أن الدنيا ونكدها تبلغ من إنسان ما بلغت مني ، إن قصدت دجلة لأغتسل منها نضب ماؤها، وإن خرجت إلى القفار لأتيمم بالصعيد عاد صلدًا أملس، وكأن بالعطوي ما أراد بقصيسته غيري، وما عني بها سواي ، ثم أنشدنا للعطوي :

من رماه الإله بالإقتار	وطلاب الغنى من الأسفار
هو في حيرة وظنك وإفلا	س وبؤس ومحنة وصغار
يا أبا القاسم الذي أوضح الجو	د إليه مقاصد الأحرار
خذ حديثي فإن وجهي مذبا	رز هذا الأنام في ثوب قار
وهو للسامعين أطيب من نف	ح نسيم الرياض غب القطار
هم البرد مسرعا ويدي صف	ر وجسمي عار بغير دثار
فتسترت منه طول التشارب	ن إلى أن تتهكت أستاري
ونسجت الأطمار بالخيط والإب	ترة حتى عريت من أطماري
وسعى القمل من دروز قميصي	من صغار ما بينهم وكبار (41)

وهكذا كثير ما كان يلجأ التوحيدي إلى استلهم شخصيات شعبية، وهي في الواقع نماذج تعكس لنا صورة حياته القاسية اتخذها التوحيدي وسيلة لتصوير واقعه المر وواقع فئة من الناس عاشت الفقر وظلم الدهر هي فئة العلماء والفقراء والبؤساء (42)، وفي الوقت الذي يشكو فيه التوحيدي عن طريق هذه النماذج الإنسانية فقره وعوزة نجده يعلن تمرد وسخريته من خلال تمرد هؤلاء ، فالقوسي الذي رفض أن يقصد ابن العميد وابن عباد حين نصح بذلك فقال : "معاناة الضر والبؤس، أولى من مقاساة الجهال والتيوس والصبر على الوحى الويل أولى من النظر إلى محيا كل ثقل ، ثم أنشأ يقول معلنا رفضه وتمرده على أمثال هؤلاء فيقول (43):

بيني وبين لئام الناس معتبة	ما تنقضي وكرام الناس إخواني
إذا لقيت لئام القوم عنفي	وإذا لقيت كريم القوم حياني

والغاية التي يريد بها التوحيدي من خلال إيراد هذه الحكاية ولهذا الشعر الذي أثبت فيهما الموقف التمردى للرجل أن يعكس تمرده فهو يقول : "فقلت له : ما أعرف لك شريكًا فيما أنت عليه وتنقلب فيه وتقاسيه سواي" (44).

وهكذا فقد كان التوحيدى من الذين حكمت عليهم الأقدار بالفقر والبؤس والشقاء ، ومما زاد الطين بلة كونه يحمل بين جوانحه نفساً ميالة إلى التمتع بالعيش ، وإلى الاستمتاع "بحياة لذيدة" ، وعلى الرغم من اتجاهه إلى التصوف، وتظاهره بالزهد والقناعة إذ كان صوفى السمى (45)، قبيح الهيئة، حقير اللبسة" (46) كانت نفسه تنزع دوماً إلى تحقيق رغباته ، وإلى الفوز بالغنى والجاء لأن "هذه العاجلة محبوبة والرفاهية مطلوبة، ، والدنيا حلو خضرة، وعذبة نضرة" (47) ، ولكنه واجه عقبات جمة عكرت صفو حياته الأمر الذى أداه إلى "اتخاذ الانتقباض صناعة" (48) وصار يتنصص "لبعد ما يشتهى" (49) حتى غدا محدودا فصار يتشكى صرف زمانه ويكي فى تصانيفه على حرمانه" (50) ، وكيف لا يكي صرف الزمان وهو يعتقد أنه رجل موهوب ، ذو ذكاء ممتاز وملكات متفوقة، ولكنه قدر عليه أن يعيش دهره فقيراً بائساً محروماً ، كما نجده فى موقفه ذلك الذى نبذه بعض الدارسين (51) ، أفضل من الكثيرين ممن كانوا فى مثل حاله حيث تدنوا إلى المستوى الذى يمتنى فيه أحدهم لو كان شجرة أو حجراً حتى يسلم مما هو فيه من حرمان، بل أن هناك من تمنى لو أنه كان بقرة حين رأى وادياً أغنى بالكأ وقد استحلّت الأرض خضرة وذلك حتى يسد رمقه ويأكل مما يرى أكلاً ذريعاً فيقول التوحيدى معلقاً على هذا : "فهل تظن - حفظك الله - بعد هذا ، بمن هذا حديثه ، وجملته وتفصيله، أن ينتعش من صرعته أو يستبصر فى شأنه أو يهتدى لسعادته ، أو يلتفت إلى معاده ، وهل بين هذا وبين الحمار الذى هو حيوان نفاق فرق ... على أنى شاهدت مثل هذا إنساناً متماسكاً، وكان له حظ من التجربة بالسنن العالية، والسفر البعيد، وكان متميزاً بمذاهب الصوفية يقول يوماً وقد أبصر حماراً يمشى : ليتنى كنت هذا الحمار ، فعجبت فضل عجب ، وانكشف لى أنه إنما تمنى ذلك ليكون ناجياً من قلائده ومثونة ما هو بعرضه، ...، وما هو مأخوذ به ومخوف منه ومعد له آجلاً" (52).

من خلال ذلك نستخلص أن أبا حيان استطاع أن يعرف قيمة الجوهر الإنسان وحقيقته على أن يكون مثل هؤلاء (53) واستهجن مثل تلك التمنيات، ووقف فى مواجهة واقعه المر، معلناً عن موقفه الرافض لذلك دون أن يتنازل عن قيمته كإنسان، وتفكيره هذا جعله يرفض موقف أولئك الذين يلجأون إلى الانتحار هروباً من واقع، فيقول متسائلاً : "ترى ما السبب فى قتل الإنسان نفسه عند إخفاق يتوالى عليه، وفقر يحوج إليه وحال تتمنع على حوله وطوقه" (54)، ثم هو يسأل بعض مشايخه بمدينة السلام عن رجل اجتاز بطرف الجسر، وقد اكتنفه الجلاوة يسوقونه إلى الجن، فأبصر موسى وميضة فى طرف دكان مزين فاخطفها كالبرق، وأمرها على حلقومه، فإذا هو يخور فى دمائه.

يسألهم من قتل هذا الإنسان؟ ويجيبه صديقه مسكويه عن سؤاله ، ثم يذيل الجواب بنفى الشجاعة عن مثل هذا المنتحر، لأن فعله من أثر النفس الغضبية لا من أثر النفس الناطقة، فهو جبان ضعيف، حاول أن يستريح من تحمل المشقة والنكول يسمى جبناً (55). ويروى أيضاً أنه شاهد رجلاً من أهل العلم : "ساءت حاله، وضاق رزقه، واشتد نفور الناس عنه، ومقت معارفه له، فلما توالى هذا عليه دخل

يوماً منزله، ومد حبلاً إلى سقف البيت واختنق به" (56)، فالتوحيدي يقف موقف الرافض لتصرف بشع كهذا، رغم كونه قد سمع من بعض أصدقائه الفلاسفة حمداً وثناءً لهذا الذي انتحر، إلا أنه يتنكر لهذا الفعل، فعلى الرغم كونه يجد صورة نفسه في أولئك المنتحرين في يؤسهم وشقائهم وسوء حالهم وضيق رزقهم إلا أنه يرفض طريقتهم في التخلص من معاناتهم وشقائهم والتي تتمثل في التخلص من الحياة (57).

كان هذا عرض لأهم المواقف التي يظهر لنا فيها رفض التوحيدي لواقعه وبؤسه وفقره، فلجأ تارة إلى وصف حاله من خلال عرض نماذج لشخصيات كانت تعاني الفقر والعوز، وتارة يلجأ إلى الاستجداء طالباً العون ممن يرى فيهم القدرة على ذلك، وقد سبق لنا ان أشرنا إلى أن بعض الدارسين كانوا يرون في تلك الصرخات إذلالاً ومهانة ألحقهما التوحيدي بشخصه وبأدبه (58) إلا أننا نرى أن الرجل اضطر إلى ذلك اضطراراً، وما كان بإمكانه أن يفعل غير ذلك لقد أدرك التوحيدي أن الاستغناء عن العمل مع السلطان كان أمراً مستحيلاً على الرغم من حبه للاستقلالية فقال: "والعزلة محمودة إلا أنها محتاجة إلى الكفاية، وصيانة النفس حسنة إلا أنها كلفة محرجة إن لم تكن لها أداة تجدها (59) وفاشية (60) تمدها، وترك خدمة السلطان غير الممكن ولا يستطاع إلا بدين متين ورغبة في الآخرة شديد، وفطام عن دار الدنيا صعب، ولسان بالخلو والحامض يلغ" (61).

لقد كان أبو حيان فناً غريباً بين أهل عصره، عاش وحشة من يرتفع عن أهل زمانه ويتقدم عليهم، فعلى الرغم ما أوتي من علم وثقافة فإنه لم ينجح في تحقيق ما يريد، فأصبح نتيجة ذلك فريسة للغيب والحسرة، كيف لا وهو لم يتمكن من التمتع بالحياة قبل فوات الأوان، ألم يقل: "إن العمر قصير، والساعات طائرة، والحركات دائمة، والفرص بروق تأتلق، والأوطار في غرضها تجتمع وتفترق، والنفوس على فواتها تذوب وتتحرق" (62)، لذلك اشتدت كراهيته لمجتمعه فتفر منه، وفضل العزلة ومال إلى التصوف بعد أن خاب أمله في حياة هنيئة راضية، فانعزل عن المجتمع واتجه إلى الله، وعندما شعر بغروب شمس العمر وبعد أن عجز عن الخلاص من الفقر الذي مل الرزوح تحت وطأته مال إلى التصوف (63) وكان ذلك احتجاجاً سلبياً في وجه مجتمع لم يعرف قدره، يدل على ذلك ما ذكره في رسالته إلى أبي الفتح ابن العميد جاء فيها: "لما رأيت شبابي هرماً بالفقر، وفقرى غنياً بالقناعة، وقناعتي عجزاً عند أهل التحصيل عدلت إلى الزمان أطلب إليه مكاني فيه وموضعي منه، فرأيت طرفه نايباً، وعنانه عن رضاي منثياً وجانبه في مرادي خشناً، وارتقائي في أسبابه نايباً، والشامت بي على الحديث متمادياً، طمعت في السكوت تجلداً وانخلت القاعة رياضة، وتألفت شارد حرصي متوقفاً، وطويت منشور أمني متنزهاً، وجمع شتيت رجائي سالباً، وادعيت الصبر مستمراً، ولبست العفاف ضناً، واتخذت الانقباض صناعة وقمت بالعلاء مجتهداً، هذا بعد أن تصفحت الناس فوجدتهم أحد رجلين: رجل إن نطق نطق عن غيظ ودمنة (64) وإن سكت سكت عن ضعف وإحنة، ورجل إن بذل كدر بامتئانه

بذله وإن منع حسن باحتفاله بخله فلم فطل اهرى فف اثنائه مفرًا(65) بطول الغرفة، وشطف العفش، وكلب الزمان، وعفف المال، وففاء الأهل وسوء الحال"(66).

الهوامش:

- (1) ما إن دخل القرن الرابع الهجري حتى ضعفت الخلافة المركزية في بغداد ولم يبق للخليفة أي نفوذ فعلي في المملكة، فكانت بلاد فارس في بني بويه، والموصل وديار ربيعة وبكر في يد بني حمدان، ومصر والشام في يد مُحمَّد بن طعج ثم في أيدي الفاطميين وخراسان والبلاد الشرقية في أيدي السامانية إلى جانب إمارات أخرى، وبذلك أصبح في العالم الإسلامي ثلاث خلافات هي: الخلافة العباسية في بغداد، والخلافة الفاطمية في إفريقيا والخلافة الأموية في قرطبة، فأصبحت مملكة بني العباس نخب أيدي الأتراك والديلم والأتراك ما هم في الواقع إلا جيل من التتر بينما الديلم هم سكان الجبال في فارس وكلهم اجتهد لنزع تراث العباسيين من أيديهم (أمراء البيان، مُحمَّد كرد علي، ج2، ص494-495)
- (2) انظر أدباء الصابئة في العصر العباسي ، د. مُحمَّد الديباجي ، ص 42 - 43.
- (3) الكامل، ابن الأثير، 217/6.
- (4) الفخري في الآداب السلطانية، ابن الطقطقي ، ص 206.
- (5) انظر أمراء البيان ، مُحمَّد كرد علي ، ج 2 ، ص 494 - 495.
- (6) انظر القرامطة وأصلهم، نشأتهم، تاريخهم، حروبهم، عارف تامر، ص 35.
- (7) تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، شوقي ضيف ، ص 53.
- (8) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدى، 30/1.
- (9) معجم الأدباء ، ياقوت الحموي، 152/19.
- (10) المصدر نفسه، 297/4.
- (11) هو علي بن مُحمَّد بن العباس التوحيدى وقد عاش طفولته في كنف أسرة فقيرة معدومة رازحاً تحت وطأة الفقر والحاجة، فقد أبويه وعاش في كفالة عمه الذي كان يمجته ، ولا يحسن معاملته (انظر البصائر والذخائر 475/2)، الأمر الذي ولد في نفسه السخط الدائم على المجتمع والتذمر والتشاؤم من الحياة والأحياء، ومن هنا نجد من خلال كتاباته ذلك التمرد الدائم على المجتمع ككل ، كيف لا وقد ظل طيلة حياته يلهث وراء أمل فصدم بواقع مر، إذ وجد نفسه وحيداً فريداً غريباً فكان مما زاد في غربته أنه عاش طيلة حياته أعزب فلم يتزوج ولم ينجب فما عرف ولدًا نجيبًا ولا صديقًا حبيبًا ولا صاحبًا قريبًا ولا رئيسًا منيئًا لقد سخر الرجل حياته كلها لطلب العلم والسعي وراء الجاه والمال ، لكنه اصطدم بالفشل الذريع، إذ لم يحقق له العلم ما كان يصبو إليه، وفي فورة الغضب والثورة على المجتمع أشعل التوحيدى النار في كتبه معلناً بذلك تمرده على المجتمع الذي لم يقدر علمه حق قدره (انظر أبو حيان التوحيدى ، إبراهيم الكيلاني ، ص 34 - 35)، أما عن وفاته فقد تضاربت الآراء في تاريخها ، فمن الدارسين من يرى أن وفاته إنما كانت سنة 400 هـ (انظر أبو حيان التوحيدى في كتابه المقابسات ، عبد الأمير الأعسم ، ص

(57) ، ومنهم من يرى أن ذلك إنما كان سنة 414 هـ (انظر أبو حيان التوحيدى ، إبراهيم الكيلاني ، ص 34 - 35 ، ومقدمة كتاب مثالب الوزيرين ، مصدرة بمقدمة عن حياته وآثاره وأدبه، د/ إبراهيم الكيلاني)، ومنهم من لم يدل برأى البتة في تاريخ وفاة الرجل 0 انظر النثر الفني في القرن الرابع الهجري ، زكي مبارك (133/2) والصواب في رأينا أن التوحيدى قد أشار في الرسالة التي بعث بها إلى القاضي أبي سهل على بن مُجَدِّد (انظر نص الرسالة في معجم الأدباء لياقوت الحموي 294/4 وما بعدها) والتي يعلل فيها أسباب إقدامه على إحراق كتبه ، ففي هذه الرسالة يخبر التوحيدى أنه في عشر التسعين ، وقد كان ذلك في رمضان سنة 400 للهجرة ، ومن خلال الرسالة ذاتها يبدو لنا التوحيدى في منتهى اليأس والقنوط وهو على فراش الموت ومعلوم أنه لم يصلنا بعد تلك الرسالة أي خبر عن الرجل على الإطلاق ، وفي ما يؤكد على ان وفاة الرجل إنما كانت في فترة جد قريبة من هذا التاريخ (انظر أبو حيان التوحيدى في كتاب المقابسات ، د/ عبد الأمير الأعسم ، ص 58) لذلك نجد الزركلي قد مال إلى تحديد تاريخ الوفاة بحوالي سنة 400 هـ (انظر الأعلام ، لخير الدين الزركلي 144/5 ، الطبعة الثانية ، مطبعة كوستاتوماس ، ص 1956).

(12) الحرف : قلة الحظ ، ورجل محارف ، منقوص الحظ لا ينمي له مال.

(13) معجم الأدباء ، ياقوت الحموي ، 292/4.

(14) انظر معجم الأدباء ، ياقوت الحموي ، 385/5.

(15) انظر أبو حيان التوحيدى ، د/ إبراهيم الكيلاني ، ص 19.

(16) انظر مجلة فصول في النقد الأدبي، المجلد 14 العدد الرابع، مقال بعنوان "الصدقة والصديق" لأحمد كماركي، ص 284.

(17) انظر الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيد، 30/1، ومعجم الأدباء، ياقوت الحمويين 152/19 و 297/4.

(18) انظر رسالة أبي حيان التوحيدى في الرد على القاضي أبي سهل علي بن مُجَدِّد ، معجم الأدباء، ياقوت الحموي، 294/4.

(19) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدى، 212/3.

(20) معجم الأدباء، ياقوت الحموي، 296/4.

(21) انظر مثالب الوزيرين، ص 314.

(22) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدى، 8-7/1.

(23) المصدر نفسه، 228-227/3.

(24) انظر أبو حيان التوحيدى فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، مُجَدِّد علي الصباح، ص 48.

- (25) أبو حيان التوحيدى، حياته، آثاره ومروياته ورسائله، حسن السندوي، ص 11.
- (26) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدى، 227-226/3.
- (27) انظر الفردية والأنا في شخصية أبي حيان التوحيدى، حسن نور الدين، مجلة الفكر العربي، العدد 54، ص 87.
- (28) معجم الأدباء، ياقوت الحموي، 305/4.
- (29) انظر الصداقة والصديق، أبو حيان التوحيدى، ص 5.
- (30) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدى، إحسان عباس، 227/3.
- (31) انظر أبو حيان التوحيدى، إحسان عباس، ص 37.
- (32) ابن السماك "هو ابو العباس مُجَّد بن صبح الكوفي الزاهد الوعظ المشهور لقي جماعة من الصدر الأول وأخذ عنهم وقدم من بغداد زمن هارون الرشيد وتوفى سنة ثلاث وثمانين ومئة بالكوفة" (هامش ص 14، ج 1 من الإمتاع والمؤانسة).
- (33) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدى، ص 14.
- (34) انظر أصداء المجتمع والعصر في أدب أبي حيان التوحيدى، نور الدين بن القاسم، ص 200.
- (35) انظر الإمتاع والمؤانسة، 51/2.
- (36) صاحب البطائح: يبدو أنه أحد أبناء عمران بن شاهين (ت 369هـ / 979م) ممن ورث إمارة البطائح بعد أبيه (انظر الزركلي 223/5).
- (37) أبو سؤال الكردي: لم نختد إلى هذا الاسم فيما بحثناه من كتب التراجم ، ولكن يبدو أنه من أمراء الجبال كما يفهم من نص أبي حيان.
- (38) سعد المعالي: لم أهتدي ايضاً إلى ترجمة هذا الاسم ولكن يبدو أنه من الأمراء ببلاد الشام
- (39) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدى، 227/3.
- (40) انظر أبو حيان التوحيدى والتراث الشعبي، مجلة فصول، المجلد 14، العدد 4 ، ص 267، ومعجم الأدباء ، ياقوت الحموي ، 297/4.
- (41) المقابسات، أبو حيان التوحيدى، تحقيق وشرح حسن السندوي ، ص 99 ، ومعجم الأدباء ، ياقوت الحموي، ج 4 ، ص 290-291.
- (42) انظر مقال "أبو حيان التوحيدى والتراث الشعبي"، مجلة فصول المجلد 14، العدد 4، ص 71.
- (43) معجم الأدباء، ياقوت الحموي، 291/4.
- (44) المصدر نفسه، 292/4.
- (45) انظر المصدر نفسه، 287/4.

- (46) انظر الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدى، 65/1.
- (47) المصدر نفسه، 13/1.
- (48) معجم الأدباء، ياقوت الحموي، 288/4.
- (49) المصدر نفسه، والصفحة ذاتها.
- (50) المصدر نفسه، والصفحة ذاتها.
- (51) لقد اضطر أبو حيان تحت وطأة الفقر ولشدة معاناته إلى أن يلجأ إلى الاستجداء والمدح المبالغ فيه، فذم بعض الدارسين اتجاهه هذا ورأوا فيه أن أبا حيان قد أحط من كرامته وأدبه عن طريق هذا النوع من الاستجداء ، ومن هؤلاء مُجَّد علي الصباح في كتابه "أبو حيان التوحيدى فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة" ، ص 36-37، والنثر الفني في القرن الرابع الهجري، زكي مبارك ، ص 166.
- (52) المقابسات، أبو حيان التوحيدى، ص 217-218.
- (53) انظر أبو حيان التوحيدى، إحسان عباس ، ص 109-110.
- (54) الهوامل والشوامل، أبو حيان التوحيدى، ص 150.
- (55) المصدر نفسه، ص 156.
- (56) المقابسات، أبو حيان التوحيدى، ص 219.
- (57) انظر أبو حيان التوحيدى، د. إحسان عباس ، ص 108.
- (58) انظر النثر الفني في القرن الرابع الهجري، زكي مبارك ، ص 166 ، وأبو حيان التوحيدى، فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، مُجَّد علي الصباح، ص 36.
- (59) تجدها : تجدها.
- (60) الفاشية: ما انتز من المال.
- (61) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدى، 14/1.
- (62) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدى، 36/1.
- (63) نود الإشارة إلى أن التوحيدى في تصوفه كان صوتاً ناشراً عن بقية متصوفة عصره، فلم يؤيد خرافات الصوفية في العزوف عن المادة والتجرد للحياة الروحية البحتة لأنه مارس الحياة وعرف موضع المادة منها وكابد متطلبات الإنسان الجسمانية ، وفي رأيه أن الموسرين فقط يمكنهم الانقطاع الكلي لله والانصياع المطلق للنسك، يقول : "العزلة محمودة إلا أنها محتاجة إلى الكفاية والنقعة مزة (خمرة لذيدة) فكهة ولكنها فقيرة إلى البلغة، وصيانة النفس حسنة إلا أنها كلفة محرجة" (الإمتاع والمؤانسة للتوحيدى، ص 14).
- (64) الدمة: الحد القديم.

(65) تبرّج: تألم وتضجر.

(66) معجم الأدباء، ياقوت الحموي، 4/305-306.

